

ثبات الأخلاق

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لو أنني سُئلتُ أن أجعلَ فلسفةَ الدين الإسلامي كُلِّها في
الظنِّين ، لقلتُ لهنَّ : ثباتُ الأخلاق ، ولو سُئِلَ أكبرُ فلاسفةِ
الدينِ أن يوجزَ علاجَ الإنسانيةِ كُلِّه في حرفين ، لما زاد على
القولِ إنه : ثباتُ الأخلاق ، ولو اجتمع كلُّ علماءِ أوربا ليدرسوا
المدنيةَ الأوربيةَ ويحصروا ما يُعشورُها في كلمتين لقالوا : ثباتُ
الأخلاق

فليس ينتظرُ العالمُ أنبياءَ ولا فلاسفةَ ولا مصالحين ولا
علماءَ يُبدعون له بدعاً جديداً ؛ وإنما هو يترقب من يستطيع أن
يقسره الإسلامَ هذا التفسير ، ويثبتَ للدينِ أن كلَّ العباداتِ
الإسلامية هي وسائلٌ عمليةٌ تمنع الأخلاقَ الإنسانيةَ أن تتبدلَ
في الحى فيخلعَ منها ويلبس ، إذا تبدلت أحوالُ الحياة فصعدت
بانسانها أو نزلت ؛ وأن الإسلامَ بأبي على كلِّ مسلم أن يكون
إنساناً حالته التي هو فيها من الثروة أو العلوم ، ومن الارتفاع أو
السُّفلة ، ومن خمولِ المنزلة أو نباهتها ؛ ويوجب على كلِّ مسلم
أن يكون إنساناً الدرجة التي انتهى إليها السكونُ في سموه وكمله ،
وفي تقلبه على منازلِهِ بعد أن سُئِنَ في شريعةٍ بعد شريعةٍ ،
ومجربةٍ بعد مجربةٍ ، وعلم بعد علم
انتهت المدنيةُ إلى تبدلِ الأخلاقِ بتبدلِ أحوالِ الحياة ،
فمن كان تقياً على الفقر والاملاق وحرمةِ الاعصارِ فنونَ اللذة ،
ثم أيسر من بعد ؛ جاز له أن يكون قاجراً على الفنى ، وأن يتسمح
لفجوره على مدٍّ ما يتطوَّحُ به المال ، وإن أصبح في كلِّ دينارٍ
من ماله شقاءُ نفسٍ إنسانيةٍ أو فسادُها

ومن وُلِدَ في بطنِ كوخٍ ، أو على ظهرِ الطريق ، وجب أن
يبقى أرضاً إنسانيةً ؛ كأن الله سبحانه لم يبن من عظامه ولحمه
وأعصابه إلا خربةً آدميةً من غيرِ هندسةٍ ولا نظامٍ ولا فنٍ ...
ثم يقابله من وُلِدَ في القصرِ أو شِبهِ القصرِ فله حكمُ آخر ، كأن
الله سبحانه قد ركب من عظمه ودمه وتكوينه آيةً هندسةً ،
وأعجوبةً فن ، وطرفةَ تدير ، وشيثاً مع شيء ، وطبقةً على طبقة

ولكن الإسلامَ يقرر ثباتَ الخلقِ وبوجبه وينشئُ النفسَ
عليه ، ويجعله في حياةِ المجتمعِ وحراسته ، لأن هناك حدوداً
في الإنسانيةَ تتميزُ بمحدود في الحياة ، ولا بد من الضبطِ في هذه
وهذه ، حتى لا يكون وضعٌ إلا وزياده تقدير ، ولا تقديرٌ إلا معه
حكمة ، ولا حكمةٌ إلا فيها مصلحةٌ ؛ وحتى لا تملو الحياةَ ولا
تنزل إلا بمثل ما ترى من كفتي ميزانِ شُدَّتْ في علاقةٍ تجمعهما
وتحر كهما مما ، فهي بذاتها هي التي تنزلُ بالنازل لتسدلَ عليه
وتشيلُ بالمالي لتبينَ عنه . فالإسلامُ من المدنية ، هو مدنيةٌ
هذه المدنية

إنها لن تتغيرَ مادةَ العظم واللحم والدم في الإنسان فهي ثابتة
مقدرةٌ عليه ، ولن تتبدل السننُ الآلهيةُ التي توجدُها وتفتنُها
فهي مصرفةٌ لها قاضيةٌ عليها ؛ وبين عملِ هذه المادةِ وعملِ قانونها
فيها ، تكون أسرارُ التكوين ؛ وفي هذه الأسرارِ تجد تاريخَ
الإنسانيةِ كُلِّه ساجداً في الدم

هي الفرائضُ تعمل في الإنسانيةَ عملَها الآلهي ، وهي معدةٌ
حكمةً على ما يكون من تعاديلها واختلافِ بينها ، وكأنها خلقت
بمجموعها لمجموعها . ومن ثم يكون الخلقُ الصحيحُ في معناه
قانوناً آلهياً على قوة كقوة الكونِ وضبطٌ كضبطه . وبهذه
القوة وهذا الضبطُ يستطيع الخلقُ أن يحولَ المادةَ التي تناقضه
إذا هو اشتدَّ وسكَّب ، ولكنه يتحول معها إذا هو كان أو
ضُفِّف . فهو قدَرٌ إلا أنه في طاعتك ، إذ هو قوةُ الفصلِ بين
إنسانيتك وحيوانيتك ، كما أنه قوةُ الرِّجِّجِ بينهما ، كما أنه قوةُ
التعديلِ فيهما . وقد سُوِّعَ القصدُ على هذه الأحوالِ جميعاً ،
ولولا أنه بهذه المثابة لماش الإنسانُ طولَ التاريخِ قبل التازيح ،
إذ لن يكون له حينئذ كونٌ تؤرِّخُ فضائله أو رذائله بمدح أو ذم
فلا عبرةً بظهور الحياة في الفرد ، إذ الفردُ مقيدٌ في ذاتِ
نفسه بمجموع هو للمجموع وليس له وحده . فانك ترى الفرائضُ
دائبةً في إيجاد هذا الفردِ لتوعه بسُنَنِ من أعمالها ، ودائبةً
كذلك في إهلاكه في النوعِ نفسه بسُنَنِ أخرى . فليس
قانونُ الفردِ إلا أمراً عارضاً كما ترى ؛ وبهذا يمكن أن يتحولَ
الفردُ على أسبابٍ مختلفة . ثم تبقى الأخلاقُ التي بينه وبين
المجموع ثابتةً على صورتها

درت بها منافسته وإلا فهي ضارة إذا كانت منها مضرة، وهي مؤلمة إذا حالت دون اللذات. ولا ينفك هذا الفرد يتحول لأنه مطلق في باطنه غير مقيد إلا بأهوائه ونزواته. وكلنا الفضية والرذيلة معدومتان في لفسة الأهواء والنزعات إذ النايبة المتاع واللذة والتجاح، وليكن السبب ما هو كائن

وبهذا فلن تقوم القوانين في أوروبا إذا فنى المؤمنون بالأدين فيها أو كآرهم اللحدون، وهم اليوم يبصرون بأعينهم ما فعلت عقلية الحرب العظمى في طوائف منهم قد خربت أنفسهم من إيمانها فتحولوا ذلك التحول الذي أوامنا إليه، فإذا أصابهم بعد الحرب ما تزال عاربة مقاتلة ترمي في كل شيء بروح الدم والأشلاء والقبور والتعفن والبلى وانتهت الحرب بين أم وأم، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق

وقديما حارب المسلمون، وفتحوا العالم، وودخوا الأمم، فأنبتوا في كل أرض هدى دينهم وقوة أخلاقهم الثابتة، وكان من وراء أنفسهم في الحرب ما هو من ورائها في السلم، وذلك بثبات باطنهم الذي لا يتحول، ولا تستخفه الحياة بزقها، ولا تتسفهه الدنيا فتحملة على العيش .

ولو كانوا هم أهل هذه الحرب الأخيرة بكل ما قذفت به الدنيا، لبقيت لهم العقلية المؤمنة القوية، لأن كل مسلم فانما هو وعقليته في سلطان باطنه. الثابت القار على حدود بينة محملة مقسومة تحوطها وتمسكها أعمال الإيمان التي أحكمها الإسلام أشد إحكام بفرضها على النفوس منوعة مكررة كالصلاة والصوم والزكاة ليمنع بها تغيرا ويحدث بها تغيرا آخر، ويجعلها كالحارسة للزيادة ما زال عمرها وتمهدها بين الساعة والساعة (١)

إنما الظاهر والباطن كالوج والساحل؛ فإذا جنّ الموج فلن يضيره ما بقي الساحل ركيناً هادئاً مشدوداً بأعضاده في طبقات الأرض. أما إذا ماج الساحل... فذلك أسلوب آخر غير أسلوب البحار والأصاير؛ ولا جرم ألا يكون إلا خسفاً بالأرض والماء وما يتصل بهما

(١) فصلنا هذا المعنى في كثير من مقالاتنا في الرسالة كقالة (ب) خيفة المسلم، و (قلقة الصوم) وغيرها

فالأخلاق على أنها في الأفراد هي في حقيقتها حكم المجتمع على أفرادها؛ قياسها بالاعتبار الاجتماعي لا غير

وحين يقع الفساد في المجتمع عليه من آداب الناس، وابتوى ما كان مستقياً، وتشتبه العالمة والسافلة، وتطرح البالاة بالضمير الاجتماعي، ويقوم وزن الحكم في اجتماعهم على القبيح والمنكر، وتجري المبرة فيما يمترونه بالذائل والمحرمات، ولا يعجب الناس إلا ما يفسد، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ومحل في محل العادة؛ فهناك لا يساك للخلق السليم على فرد، ولا بد من تحول الفرد في حقيقته إذ كان لا يبيح أبداً إلا متصدداً في كل مظاهره الاجتماعية، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثولماً، وكأنه منتقل من عالم إلى عالم فإن يغير نواميس الأول

وما شد من هذه القاعدة إلا الأنبياء وأفراد من الحكماء؛ فأما أولئك فهم قوة التحول في تاريخ الإنسانية لا يميض أحدٌهم إلا لسيحج به المييج في التاريخ، ويتطرق به الناس إلى سبل جديدة كأنما تطردم إليها المواصل والازل والبراكين، لا شريسته ومبادئه وآدابه. وأما الحكماء الناصحون فهم دائماً في هذه الإنسانية أمكنة بشرية محصنة لحفظ كنوزها وإحرازها في أنفسهم، فلم في ذات أنفسهم عصمة ومدنة كالجبال في ذات الأرض

الأخلاق في رأي هي الطريقة لتنظيم الشخصية الفردية على مقتضى الواجبات العامة، فالإصلاح فيها إنما يكون من عمل هذه الواجبات، أي من ناحية المجتمع والقائمين على حكمه. وعندى أن للشعب ظاهراً وباطناً، فباطنه هو الدين الذي يحكم الفرد، وظاهره هو القانون الذي يحكم الجميع، ولن يصلح للباطن المتصل بالنيب، إلا ذلك الحكم الديني المتصل بالنيب مثله، ومن هنا تتبين مواضع الاختلال في المدينة الأوربية الجديدة، فهي في ظاهر الشعب دون باطنه، والفرد فاسد بها في ذات نفسه إذا هو محلل من الدين، ولكنه مع ذلك يبدو صالحاً منتظماً في ظاهره الاجتماعي بالقوانين والآداب العامة التي تفرضها القوانين، فلا يبرح هازئاً من الأخلاق ساخرأ بها لأنها غير ثابتة فيه، ثم لا تكون عنده أخلاقاً يستد بها إلا إذا

ما ينقلونه ؛ فصنعتهم الترجمة من حيث يدرون أو لا يدرون
سنة تقليد محض ومتابعة مستعبدة ، وأصبح عقلهم
بحكم العادة والطبيعة ، إذا فكّر انجذب الى ذلك الأصل
لا يخرج عليه ولا يتحول عنه . وإذا صح أن أعمالنا هي التي
تملنا كما يقول بعض الحكماء ، فهم بذلك خطر أي خطر على
الشعب وقوميته وذاتيته وخصائصه ، ويوشك إذا هو أطاعهم
إلى كل ما يدعون إليه أن ... أن يترجموه الى شعب آخر

* * *

إن أوروبا ومدنيتها لا تساوي عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تحقق
فيها من اتساع الذاتية بملوها وفنونها ، فانما اللاتية وحدها هي
أساس قوتنا في النزاع العالي بكل مظاهرها أيها كان ؛ ولها
وحدها ، وباعتبار منها دون سواها ، نأخذ ما نأخذ من مدينة
أوروبا ونهمل ما نهمل ؛ ولا يجوز أن تترك التثيت في هذا ولا
أن نتسامح في دقة المحاسبة عليه

فالمحافظة على الضوابط الانسانية القوية التي هي مظاهر الأديان
فيها ، ثم إدخال الواجبات الاجتماعية الحديثة في هذه الضوابط
لربطها بالعصر وحضارته ؛ ثم تنسيق مظهر الأمة على مقتضى
هذه الواجبات والضوابط ؛ ثم العمل على اتحاد الشاعر وتمازجها
لتقويم هذا المظهر الشعبي في جلته بتقويم أجزائه . هذه هي
الأركان الأربعة التي لا يقوم على غيرها بناء الشرق

والاحاد والترعات الساقلة ونخايت المدينة الأوربية التي
لا عمل لها إلا أن تظهر الخطر في أجل أشكاله ... ثم الجهل
بعلوم القوة الحديثة وبأصول التدبير وحيطة الاجتماع وما جرى
هذا المجرى . ثم التدليس على الأمة بآراء القلدين والزائفين
والمستعمرين لمحق الأخلاق الشعبية القوية ، وما اتصل بذلك .
ثم التخاضل والشقاق وتدابر الطوائف وما كان بسببها . تلك
هي المعاول الأربعة التي لا يهدم غيرها بناء الشرق

فليكن داعماً شعارنا نحن الشرقيين هذه الكلمة : أخلاقنا

قبل مدنيتهم

(طنطا)

مفتي مصر

إلى البغدادي في بغداد : ستقدم بعد قليل على موضوع الزبال وأنه
المستعان ، فقد كنا تهيب هذا الموضوع إذ هو عندنا ليس الزبال ولكنه
نصف المسألة الانسانية كما يقول عن نفسه الرافعي

في الكون أصل لا يتغير ولا يتبدل ، هو قانون ضبط القوة
وتصرفها وتوجيهها على مقتضى الحكمة . ويقابله في الانسان
قانون مثله لا بد منه لضبط معاني الانسان وتصريفها وتوجيهها
على مقتضى الكمال . وكل فروض الدين الاسلامي وواجباته
وآدابه ، إن هي إلا حركة هذا القانون في عمله ، فما تلك إلا
طرق ثابتة تخلق الحس الأدبي ، وتثبيته بالتكرار ، وإدخاله
في ناموس طبيعي باجرائه في الأنفس مجرى العادة ، وجعله
بكل ذلك قوة في باطنها ؛ فتسمى الواجبات والآداب فروضاً
دينية ؛ وما هي في الواقع إلا عناصر تكوين النفس العالية ،
وتكون أوامر وهي حقائق^(١)

من ذلك أرى أننا نحن الشرقيين نمتاز على الأوربيين بأننا أقرب
منهم إلى قوانين الكون ؛ ففي أنفسنا ضوابط قوية متينة إذا
نحن أقررنا مدنيتهم فيها — وهي بطبيعتها لا تقبل إلا محاسن
هذه المدينة — سيقنناهم وتركتنا غبار أقدامنا في وجوههم ،
وكنا الطبقة المصفاة التي ينشُدونها في إنسانيتهم الراهنة
ولا يجدونها ، ونمتاز عنهم من جهة أخرى بأننا لم نُنشئ هذه
المدينة ولم تنشئنا ، فليس حقاً علينا أن نأخذ سيئاتها في حسناتها ،
وحمائتها في حكمتها ، وتزويرها في حقيقتها ، وأن نسيغ منها
الحلوة والرة ، والناضجة والفجة ، وإنما نحن نحصاها ونقتبسها
وزنجع منها الرجمة الحسنة ؛ فلا نأخذ إلا الشيء الصالح مكان
الشيء قد كان دونه عندنا ندع ما سوى ذلك ؛ ثم لا نأخذ ولا
ندع إلا على الأصول الضابطة المحكمة في أدياننا وآدابنا ، ولنا
مثلهم متصلين من حاضر مدنيتهم يمثل ماضيهم ، يبدت أم
المعجب الذي ما يفرغ كحبي منه أن الموسمين منا بالتجديد
لا يحاولون أول وهلة وآخرها الا هدم تلك الضوابط التي هي
كل ما نمتاز به ، والتي هي كذلك كل ما محتاج إليه أوروبا لضبط
مدنيتها ؛ ويسمون ذلك تجديداً ، ولهو بأن يسمى حماقة
وجهاً أولى وأحق

أقول ولا أبالي : إننا ابتلينا في نهضتنا هذه بقوم من المترجمين
قد احترقوا النقل من لغات أوروبا ، ولا عقل لهم إلا عقل

(١) هذا هو الذي ضل عنه مصطق كمال ومن شايهوه ، ومن قلدهه ،
ومن أخذوا فيه ، ولو فهمه حق الفهم لجدد تركيا وجدد العالم الاسلامي
كله ، ولكن الرجل غريب عن هذه المعاني فصبر النظر ، فا زاد على أن
جدد توباً وبقية ...